الجزء الثاني

الفصل الأول

مخطط الرأس، القدم

يقسم الطب العضوية كلاسيكياً إلى وحداتٍ وظيفية، لكل منها طبيب اختصاصي مسؤول عنها. هكذا فإن طبيب الأمراض الهضمية مختص بالمجرى المعدي / المعوي، وطبيب الكلية مختص بالكليتين، وطبيب العصبية مختص بالأعصاب. أما المريض بالمقابل، فيعيش العضوية أقرب إلى كونها وحدة واحدة. ولا شك في أن هناك ما يؤيّد وجهة نظره، إذ لا يمكن الفصل بين الوحدات الوظيفية بشكل صارم، فكل شيء مترابط على نحو وثيق جداً. هناك أعصاب وأوعية دموية في كل مكان من الجسد، وثمة أعضاء، مثل الكبد والكليتين، مسؤولة عن العضوية بكاملها. من هنا فإن وجهة النظر *الملزِمة* أقرب إلى ما يراه الإنسان العادي، ذلك أنه يعيش شكاياته اضطراباً في عافيته العامة، وغالباً ما لا يستطيع أن يدرك، إلاّ بشكل مبهم المنطقة التي يصدر عنها الاضطراب. لكل من التقسيم حسب الوظائف والتقسيم حسب المناطق ميزاته، بيد أن النظرة المناطقية أثبتت أنها أكثر جدوى بالنسبة للتقويم الكلاّني للصورة المرضية. إذا فسّرنا الصورة المرضية انطلاقاً من منطقتها، فنحن نبدأ بالقاعدة التي تقوم عليها، أو بالأحرى بالمسرح الذي تتجسّد عليه الدراما النفسية الذهنية. ففي التهاب الرئة مثلاً تُظهِر الرئة المستوى الذي يدور فيه الصراع. صحيح أن مستوى التواصل نفسه يُصاب في النُفاخ الرئوي أيضاً، ولكن مع فرط انتفاخ الحويصلات الرئوية وتشكّل ما يُسمى الصدر البرميلي، يتم تمثيل مسرحية أخرى على هذه الخشبة. هكذا يمكن لمشكلات مختلفة كلياً أن تصدر عن المنطقة نفسها وأن يكون لها قاعدة مشتركة.

لتوضيح هذا الأمر يتم تناول المنطقة المصابة أولاً، أي قبل المشكلات النوعية، وذلك بدءاً من الأعلى باتجاه الأسفل، ويتم تفسير الصور المرضية التي تظهر أثناء ذلك، وفقاً لمعناها وكثرة مصادفتها، طالما لم يحصل هذا مسبقاً.

أدركت الثقافات المختلفة مراكز الجسد، وفهمت علاقاتها بعضها ببعض، ووصفتها كل بطريقتها. ما يصفه الصينيون بالمسارات (Meridian) أسماه الهنود أقنية (Nadi). كما طوّر الكثير من الشعوب العريقة أيضاً معرفةً مؤثّرة في السُبل الطاقوية الناقلة في الجسد، فمواضع الطاقة المركَّزة المعروفة في الثقافة الهندية بالشاكرا (Chakra)، نجدها مذكورةً في تقاليد مختلفة. ينطلق المرء في الشرق من سبعة من هذه الشاكرا الرئيسة. تقع الاثنتان العلويتان في الرأس، والاثنتان السفليتان في الحوض، وتقع الثالثة في نقطة الانتقال من منطقة الحوض إلى منطقة البطن، بينما تقع الخامسة في المنطقة الانتقالية للعنق، أما الشاكرا الرابعة الوسطى فهي شاكرا القلب. هذا يعني من وجهة نظر طاقوية وجود ثلاثة مراكز ثقل في العضوية: الرأس والحوض كقطبين متعاكسين، وفي الوسط بينهما الصدر مع حيّز القلب. في حين أن معرفة هذه المراكز الرئيسة الثلاثة موجودة في كل أنحاء العالم، نجد أن أهمية كل منها تختلف كل الاختلاف، فقد شدّدت الشعوب الجرمانية الشمالية في سياق تطورها على الرأس، بينما تعيش شعوب البحر الأبيض المتوسط على القلب أكثر من غيره، وتركن الثقافات الهندية الحمراء المهدَّدة بالأفول إلى أحاسيس البطن، مما جعلها تُقفر نوعاً ما، قياساً إلى نجاح الثقافات الأخرى. باعتمادها على حدسها لم تستطع الصمود في وجه شعوب البحر الأبيض المتوسط حادة الطبع القادمة من إسبانيا والبرتغال، ولا أمام العقل العدواني للثقافات الشمالية.

في حين عاش البشر في بداية التاريخ المعروف لنا على أحاسيس البطن وعلى غرائزهم في علاقة وثيقة مع الأم "الأرض"، انتقل القلب إلى مركز الصدارة مع السيادة العالمية الإسبانية البرتغالية، لتحلّ محله أخيراً سلطة الرأس العقلية، وبوصفه الهيئة الجسدية العليا تعلّم الرأس في سياق التاريخ السيطرة على المركزين الآخرين، وأخضعت الثقافات الرأسية الأرض. بيد أن ما حدث في العالم، حدث في الجسد والنفس أيضاً، فقد أخضع الرأس القلب والبطن، وانطلقت سيادة الرأس بلا رحمة. يتوافر الرأس عن طريق العينين، والأذنين، والأنف، وحليمات الذوق، على احتكارٍ معلوماتي[1] يكاد يكون مطلقاً، كما يمتلك بوساطة

١- أما حاسة اللمس، ومن باب أولى الحدس، فقد جرى إضعافهما وتغييبهما بشكل متزايد في سياق ديكتاتورية الرأس.

الدماغ، فوق ذلك، مركزاً لإدارة هذا الفيض المعلوماتي على هواه. منذ أن *رفع* الإنسان المنتصب *رأسه*، لم يحرّر رجليه الأماميتين لفرض مصالحه وحسب، بل استطاع أيضاً استكمال بناء دماغه إلى المخ، وقد تحوّل هذا الأخير فيما بعد إلى السلطة العظمى والحاسمة في البيت الجسدي، والتي انبرت إلى السيطرة على سائر الأعضاء الأخرى وتدجينها. يقول المثل: "القدم يجب أن تمشي إلى حيث يريد الرأس". وبوصفه الموضع الذي تركّزت فيه هذه السلطة تحوّل الرأس إلى *الرئيس*، إلى الشيء *الرئيس* في الحياة. يحكم الرأس أقاليم الجسد، مثله مثل عاصمة دولة مركزية أو المدينة الرئيسة[1] فيها. هذا ما تؤكّده مصطلحات مثل *رأس القبيلة* أو *رأس الدولة*. كما إن *القبطان* أو *الكابتين* (Caput ،Kapitän باللاتينية تعني رأس) الذي يحكم السفينة، *ورأس المال* (Kapital) الذي يحكم العالم، يؤكّدان من هو السيّد في البيت أو بالأحرى في العالم. تحكّم الرمان بإمبراطوريتهم انطلاقاً من *الكابيتول* (Kapitol)، ويحكم الأمريكيون أجزاء كبيرة من العالم انطلاقاً من مدينتهم الرئيسة أو عاصمتهم واشنطن، التي يسمونها *كابيتال* (capital).

أضف أن أصحاب ثقافات الرأس الصناعية سمحوا، ببنائهم على الاجتهاد (Fleiß، وتعني باللاتينية industria= صناعة)، باستغلال استئثاره بأعضاء الحواس من أجل قمع صلتها بالشهوانية. هكذا تم استبعاد حاسة الشمّ من المرتبة الأولى، وهي التي كانت سائدة في الأصل ومسؤولة عن أمور من بينها التقاط روائح الأطعمة، وبما أنها كانت أقرب إلى المتعة الشهوانية والملذّات الحسّية، فقد فقدت أهميتها، ولا يزال المخ الشمّي الكبير الذي له علاقة في هذه الأثناء، كجهازٍ حوفي، بمعالجة الأحاسيس والمشاعر، يشهد على هذا الماضي إلى اليوم. كما كان لا بد للسمع أيضاً من التراجع أمام العينين، اللتين انتقلتا بعد الانتصاب على الرجلين الخلفيتين، إلى المرتبة العليا بين جميع الحواس، وأفادتا وحدهما من النظرة العامة المكتسَبة، وبينما تضرّرت الحواس الأخرى جراء ذلك، وابتعدت

١- "عاصمة" بالألمانية Hauptstadt، حيث Haupt= رأس، Stadt= مدينة. -المترجم.

عن مصادرها المعلوماتية، اكتشفت العينان الآن فيضاً من معلوماتٍ غنية وموسَّعة، أدت معالجتها إلى تراجع جانبهما الشهواني بشكل متزايد.

ما أشبه الحالة المحزنة التي توجد فيها اليوم الأرض التي تم إخضاعها، بحالة الجسد الذي غالباً ما يتم إخضاعه أيضاً، وهي تشير إلى أن السيادة أحادية الجانب للرأس قد تمثّل مأزقاً. على الرغم من الذكاء الفائق للرأس الأعلى تتزايد المشكلات بصورة أسرع من الحلول، لا سيما أن *الصحوة* لا تُعدّ من نقاط قوته.

الأشخاص الشهوانيون أكثر انفتاحاً على الانفعالات، والعواطف، وخلجات القلب، التي تهدّد بدورها سلطة الرأس المطلقة، ففي حالة الغرام مثلاً يضطر الرأس إلى أن يقف عاجزاً ويكتفي بالتفرّج على القلب المتأجّج وهو يتولّى السلطة، وبما أنه لا يستطيع تقبّل هذا الأمر بنزاهة وإنصاف، يبدأ بإلقاء التهم *زاعماً* أن شخصاً آخر قد *أدار رأس* صاحبه، الذي وقع في الغرام، وبالتالي *فقد رأسه* أو صوابه. لا يمكن لمثل هذا أن يحصل مع رأسٍ يعمل بشكل سوي. قبل أن يفقد المعنيون عقلهم كلياً، أو بالأحرى قبل أن يفقد هذا الأخير أولويته، يقوم العقل بتقديم أشد *المزاعم* غرابةً بغية إنهاء الحالة الربّانية المهدِّدة له ثانيةً. نعلم جميعاً أن حججه العقلانية والمنطقية هي عملياً ما يدمّر الحب دائماً ويضع حداً لتلك الجولة في مملكة القلب، وفي حين أنه من النادر أن يُمنى الرأس بهزائم على جبهة القلب، فهو يسيطر على أحاسيس البطن بكل تأكيد. لا يزال الحسّ الشعبي غير المنطقي وحده يعرف أن بإمكانِ المرء أن يرى بالقلب أيضاً، ويعيش من أحاسيس البطن. لا شك في أن أقوالاً مأثورة مثل "الحب والعقل لا يتّفقان"، أو "عندما يشتعل القلب على الرأس إحضار الماء"، تعبّر عن التنافس بين الرأس، والقلب، والإحساس. كما يعرف "الطب" الشعبي أن "نار القلب تبعث الدخان في الرأس"، *والرأس الدخاني* مؤلم بالطبع.

غالباً ما لا يمكن حسم السؤال التالي عند المثقّفين والمفكّرين: هل الرأس في حيازة الشخص المعني أم أن هذا الأخير في حيازة رأسه؟ يمثّل الرأس بالنسبة لنا، نحن المعاصرون، في كل الأحوال المنطقة العليا والأهم، والتي نحرص عليها ونُعنى بها إلى الحد الأقصى، وينفق معظم الناس على العناية بها أكثر مما ينفقون على العناية بباقي الجسد. نحن نستخدم الرأس في العمل وفي أوقات الفراغ، وذلك بحكم أهميته، ونعتمد على الدماغ كمركزٍ للقيادة فيه.

ويتبيّن من موقعه المرفوع، الذي يُعدّ تتويجاً للعمود الفقريّ المنتصب إن صح التعبير، أنه يستحقّ دور الرئيس الأعلى فعلاً. كما إن شكله المدوّر القريب من المثل الأعلى للكرة، يشير إلى مركزه الخاص. ولكن السؤال يطرح نفسه عما إذا كان الإنسان، الرأس المميِّز لثقافتنا لا يزال يعي أن المراكز الأخرى ضرورية للحياة أيضاً، وأن الرأس لا يستحق في الواقع سوى دور الأول "بين المتساوين". يكفي أن

نستمع إلى اللغة كي نعرف أن الرأس يمكنه دائماً أن *يزعم*، إنما لا يمكنه *القبض* على الأمور، وهو بحاجة إلى اليدين لهذا الغرض. حتى مزاعمه تبقى واهية ومعلّقة في الهواء، طالما لم يتم *تأسيسها على أرض الواقع*. يبيّن علم التشريح أن الرأس يستحقّ المقام الأول، ولكنه لا شيء من دون *الأساس* الجسدي، الذي يرقد عليه. تعرف اللغة الشعبية أن "القلب يجفّ عندما ينفرد الرأس بالسيادة". من هنا، لا غرابة في أن أمراض القلب والدوران*، لا سيما احتشاء القلب*، تحتل رأس القائمة في إحصاءات الوفيات لدينا، وبفارق شاسع عما يليها. يحدث في الاحتشاء نقص في إمداد القلب بالدم، فيموت جوعاً.

على الرغم من القلوب الكثيرة التي تصرخ من الألم لا يزال مركز الرأس يحظى بجلّ اهتمامنا. بالرأس *نزعم ونتزعّم*، وهدفنا الأسمى الإبقاء عليه مرفوعاً في خضم الصراع على السلطة الاجتماعية. لا يجوز لأي شيء أن يتجاهل رأسنا، والويل لمن يحاول استغلالنا أو السخرية من عقلنا. نحن نحمّس أنفسنا ونقول: "خلِّ رأسك مرفوعاً!"، أو "لا توطّي رأسك!"، عندما لا تسير الأمور كما ينبغي. لا نريد أن تكون لنا أي صلة بالمجالات السفلية. ومع هكذا *تثقيل* للرأس نضطر إلى تذكير بعضنا بعضاً قائلين: "لا تطأطئ رأسك!"، وبذلك نحذّر أنفسنا من التقهقر إلى الزمن القديم (الجيد؟)، الذي لم يكن فيه الرأس الرقم 1 بالمطلق. قناعةً منا بأننا قمة الخلق وتاجه نؤثِر الاهتمام والحرص على قمّتنا وتاجنا. أما وأن فرط التشديد على الرأس ليس مصيباً أبداً، فهذا ما تشي به كثرة مصادفة الصداع وآلام الرأس.

في سياق طموحنا الرأسي *خرجت بعض الأمور عن سيطرتنا* وبات الرأس يهدّد *بالتصدّع* والانفجار. ما *نضعه في رأسنا*[١]، يبقى في الرأس، ومن غير النادر أن يؤدي إلى الاكتظاظ فيه، وإلى *كبر ويبوسة الرأس* الموافقة. يكاد كل إنسان في مجتمعنا يعرف الشعور بأن لديه *رأس يابس* أو *رأس كبير*؛ في حين يكاد لا يوجد فرد في ما يسمى الثقافات البدائية يستطيع أن يتصور أو يدرك ما معنى ذلك. على الرغم من أننا لسنا أغبياء ولا يمكن أن "*يُلعَب بعقلنا*"، غالباً ما *لم نعد نعرف رأسنا من رجلينا*. إن الأشخاص الذين لا *يُنهكون رأسهم بالتفكير*، ولا يميلون إلى *خبط رأسهم بالحائط*[٢]، ولا يضطرون دائماً إلى *الزعم* بأن العالم لا يتطور بشكل صحيح إلاّ إذا *سار كل شيء كما يريدون*، هؤلاء الأشخاص لا يعرفون آلام الرأس على

١- المقصود ما نصمّم عليه. يُقال: حطيت الموضوع برأسي، أي صمّمت عليه. -المترجم.
٢- خبط رأسه بالحائط بمعنى أراد المستحيل. -المترجم.

الإطلاق. جراء الأمان الذي يشعرون به عبر وعيهم أن الخلْق يتطور حسب مشيئة الله على أي حال، فهم لا يحسّون بما يؤلم ويُكرب الكثير جداً من الأشخاص المعاصرين. من غير النادر أن الضغط، الذي نضعه على أنفسنا باعتبارنا أنفسنا أسياد هذا الخلْق، يضغط علينا في تلك المنطقة التي *نزعم* بوساطتها. ولا يتمظهر ذلك في داخل الرأس وحسب، بل خارجه أيضاً، أي في الوجه، علماً بأن معظم الصور المرضية، التي تنجم عن هذا الوضع غير المتوازن، تصيب الجسد المقموع والمغلوب على أمره.

معظم الظن أننا نندد لفرط التشديد على الرأس ليس بآلام الرأس فقط، بل بمعظم الشكايات النفسية البدنية؛ فهذه الأخيرة غير معروفة إلى حد بعيد عند ما يُسمى الثقافات القديمة القريبة من الطبيعة والمستغنية عن العقلانية. على الرغم من هذه المعلومة، من غير المجدي الحطّ من شأن الرأس، إنما الأكثر جدوى هو تفسير علامات إرهاقه وإشارات الإنذار التي يرسلها، ومساعدة مناطق الجسد الأخرى في نيل الأهمية التي تستحقها.

قبل أن نبدأ بهذه المهمّة، ونشتغل على مخطّط الرأس، القدم وصولاً إلى جذورنا، لا بد من معالجة موضوع السرطان، ذلك أن السرطان قد يصيب جميع الأعضاء والأنسجة عملياً، وفي هذه الحالة أيضاً يُنصَح بدراسة الناحية المصابة أولاً، قبل الاشتغال على فصل السرطان العام التالي[1].

١- بعد أن أشرنا إلى أن سرطان الرئة أكثر السرطانات مصادفةً عند الرجال، وعالجنا سرطان المعدة والأمعاء، الذي يمثل أكثر من نصف مجموع الأورام السرطانية، في كتاب "مشكلات الهضم"، نشير في هذا الكتاب إلى أن سرطان الثدي أكثر السرطانات النسائية شيوعاً، وبإمكان الفصل القادم أن يمدّنا، ارتباطاً مع توصيفات المناطق، بالقاعدة اللازمة لتفسير الإصابات السرطانية النوعية، التي لم يتم تناولها بصفة خاصة.